خواطر حول
مشكلات التعبير والاتصال الشعريين
في المجتمع العربي

أدونيس

I

تشكل مسألة التعبير والاتصال الشعريين أو مسألة العلاقة بين المبدع والمتلقي ، في التراث النقدي العربي ، مدارا للجدل منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا . فقد بدأت هذه المسألة تظهر في النقد العربي مع ظهور الاسلام .

كان الاسلام رؤيا جديدة للكون ونظاما جديدا للحياة، أي انه لم يكن استمرارا «للقديم»، للجاهلية العربية ، بل كان انفصالا عنها . لكن ، على الرغم من انه كان تأسيسا جديدا لبنى اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية تغاير البنى الجاهلية ، **فقد احتفظ بالشكل الشعري الجاهلي كطريقة للتعبير الشعري** . وهكذا كان الاسلام انقطاعا عن الجاهلية، على صعيد النظر أو المضمون ، واستمرارا للجاهلية على صعيد الشكل أو التعبير .

هذا الموقف يطرح عددا من التساؤلات : هل كان تبني الاسلام للشكل الجاهلي عائدا الى انه يعبر التعبير الاكمل عن شخصية العربي ، اللغوية والذهنية ، بحيث استحال تغييره حتى على الاسلام ذاته ؟ هل هو عائد الى كونه نموذجا بيانيا كاملا اكتسب ، بفضل الخبرات الطويلة المتراكمة ، خاصية الثبات والاطلاق ، حتى أصبح شكلا موجودا بذاته، منفصلا ، ومستقلا ؟ أم لعله يعود الى حرص الاسلام على الاتصال — اذ ادرك أن الشكل الشعري الجاهلي بنية لغوية — تعبيرية ينفعل بها العربي ، ويفهمها بسهولة الحياة اليومية ذاتها، فتبنى الشكل لكي يكون أداة وواسطة تنقل « المضمون » الاسلامي الجديد ؟ أم لعله يعود الى أن الاسلام كنظرة للثقافة ، وللكون بعامة ، يفصل بين الذات والموضوع ، الانسان والطبيعة ، اللغة والشيء ، الشكل والمضمون ، وهكذا صارت « حياة » العربي اسلامية ، أما « روحه » فبقيت جاهلية ؟

ليس من غرض هذا البحث ان يجيب عن هذه التساؤلات ، بقدر ما يريد اثارتها تدليلا على أن لمسألة التعبير والاتصال جذورا قديمة في التراث العربي ، وعلى انها بالتالي مسألة لا تحتاج الى الدراسات الجمالية وحسب ، وانما تحتاج كذلك الى دراسات انتروبولوجية .

الثابت ، تاريخيا ، هو أن الشاعر المسلم افصح عن ايديولوجيته الاسلامية بالشكل الجاهلي . فقد حارب الجاهلية بأسلوب التعبير الذي ابتكرته الجاهلية نفسها . وعبر عن الصراع من أجل انتصار الدين بالطريقة الفنية ذاتها التي كان يعبر بها الشاعر الجاهلي عن انتصار قبيلته في صراعها مع القبائل الاخرى . وامتدح النبي والخلفاء